آثار مفكريهم الرواد وكما سنرى عند تحليل الصور الروائية والحواريات التى أجرها « الويلحى » فى « حديث عيسى بن هشام » •

٣ ــ أزمة البرجوازية المصرية فى « حديث عيسى بن هشام » •

من المسلم به أن التقدم الاجتماعى لمجتمع من المجتمعات انما يقاس فى ضوء ما يقدمه هذا المجتمع من عطاء لأفراده يتحقق لهم من خلاله الاشباع المادى والروحى ، والنسق الاقتصادى للمجتمع المصرى آنذاك ينبىء عن طبيعة مجتمع جديد بدأ يتمخض من المجتمع الاقطاعى القديم •

ويشى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة بما طرأ على بنيان المجتمع من حراك [1] يساعدنا فى القاء أضواء على المهمة التى انتدب «الويلحى» نفسه لتحقيقها • ومن المسلمات فى علم اجتماع المعرفة ، أن ذيوع فكرة وانتشارها انما تعكس فكر صاحبها ، ومزاجه ، وموقفه الاجتماعى ،

---

(١) أستخدم كلمة « حراك » بالمدلول الاجتماعى على نحو ما يشير المصطلح وبالتحديد يعنى أنه « كل انتقال للفرد أو الجماعة أو لاحدى القيم الاجتماعية من وضع اجتماعى الى آخر . وقد يكون هذا الحراك أفقيا كما قد يكون رأسيا . فالتحرك الافقى يشير الى كل انتقال يتحقق على مستوى اجتماعى واحد ، مثال ذلك انتقال الفرد من عقيدة أو من أسرة الى أخرى بطريق الزواج أو من وضع الى آخر بشرط عدم تغيير وضعه المهنى أو مستوى دخله . أما الحراك الرأسى فهو ــ فى المجتمعات التى يوجد فيها هيكل تدرجى للفئات الاجتماعية ، يتمثل فى انتقال الافراد أو الجماعات من طبقة الى أخرى ، وهذا التحرك قد يكون صاعدا عندما ينتقل الفرد من جماعة أدنى الى جماعة أعلى ، أو عندما تحسن جماعة مستوى معيشتها أو مكانتها فى التدرج السياسى أو المهنى ، أو عندما تصعد جماعة بأكملها درجة فى السلم الاجتماعى . ويكون التحرك نازلا عندما تتحلل الجماعة بأكملها وتجد أن مكانتها تهبط بالنسبة للمجتمع ككل . ومن أمثلة التحرك الرأسى الصاعد ، صعود الطبقة البورجوازية بالنسبة لطبقة النبلاء ، قبيل الثورة الفرنسية ، ومن أمثلة التحرك الرأسى النازل هبوط مكانة رجال الدين عند الانتقال من مجتمع العصر الوسيط الى مجتمع العصور الحديثة .
انظر ، معجم العلوم الاجتماعية ، اشراف د. ابراهيم بيومى مدكور ص ١٢١ .

وموقعه الطبقى • وقـد كان موقف المويلحى ـ فى انتمائه الطبقى ـ أقرب الى ما نسميه بمصطلحنا المعاصر بموقف « الرأسمالية الوطنية » التى وجدت نفسها وقد تعرضت للنهب الاستعمارى والتدخل الأجنبى وعانت من وطأة الامتيازات لأجنبية (١) •

ومن جانب آخر ، فان الفكرة المحورية التى يدور حـولها كتاب « حديث عيسى بن هشام » هى فكـرة **« التغيير »** • وهى تنشى بظلال فلسفية ، وتثير عناقيد من المعانى تتمثل فى **الفعل الانسانى فى مظاهر الكون والحياة هل هو اصلاح أم افساد ؟ • بقول آخر هل ما يحدث فى الحياة من تطور أقرب الى مـدلول التغيير بكل ما فى الكلمة من فعـل انسانى أم الى التغير الذى لا دخل للانسـان فيه ؟ مـا دور الفعـل الانسـانى ؟ !**

والمتأمل فى « حديث عيسى بن هشام » يلمس أزمة المثقف المصرى فى مواجهته للمجتمع ، ودوره فى التغيير الاجتماعى •

لم أعثر للمويلحى ـ فى حدود ما قرأت من تراثه ـ على تعريف للثقافة • وان كان فكره الاجتماعى ينزع بالمدلول نحو التغيير وهو وان بدا للنظرة المعاصرة اصلاحيا الا أنه بالنسبة لعصره يقرب أو يكاد من الثورية • كما أنه بهدى من بصيرته الفنية وببصرته التى تدرك ما فى الواقع الاجتماعى من تناقض صارخ ، بلور موقفه من القضايا الاجتماعية والحضارية التى فرضت نفسها بحكم ما طرأ على البناء الاجتماعى من تغيير وتغير فى آن •

ومن الأهمية أن نتعرف على موقف « المويلحى » من الثقافـة ،

---

(١) انظر ، د. شكرى محمد عياد ، القصة القصيرة (معهد الدراسات العربية العالية ، سنة ١٩٦٧ / ١٩٦٨) ، ص ٧٠ .

ودور المثقف فى المجتمع • وارتباط هذا الدور بالوضع الطبقى للمثقف • ولا ننسى أنه كان من تلاميذ الزعيم الثائر « جمال الـدين الأفغانى » (١٨٣٩ ــ ١٨٩٧ م) وهو واحد ممن أهـدى الكتاب اليهم • وتنبىء رسالة « الأفغانى » للمويلحى عن آماله فى تغيير الواقـع الهابط [١] فالثقافة بالنسبة لمثقف من تلاميذ « الأفغانى » ليست ترفا ، وانما هى سلاح من أسلحة **التغيير الثورى والتقدم الاجتماعى** •

هكذا بدت أزمة البورجوازية المصرية ، ورنت مشكلة مواجهـة المثقف لمجتمعه المتخلف وكيف يغيره ؟! والواقع أن القضية شغلت جزءا كبيرا من فكر المثقفين المصريين فى القرن التاسـع عشر ومطالع القرن العشرين فلم تقتصر على « المويلحى » بل سبق أن تلمسناها فى فكـر « الطهطاوى » [٢] و « الأفغانى » و « محمد عبده » [٣] • والمتأمـل فى المقالات التى كان يكتبها « عبد الله نديم » (١٨٤٥ ــ ١٨٩٦) متهكما بالحياة القشرية التى كان يحياها « كبراء العصر الماضى » ــ على حـد تعبير المويلحى ــ يدرك أن القضية لم تكن موقفا فرديا بل لقد تجاوزت الموقف الفردى لتصبح سلوكا اجتماعيا يسم هذه الطبقة من الملاك [٤]

وليس من مهمتى هنا دراسة الطبقات الاجتماعية فى مصر [٥] •

---

(١) « حديث عيسى بن هشام » (القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤) ص ٢ •

(٢) انظر ص ٣٣ وما بعدها من هذه الدراسة .

(٣) انظر ص ٤٥ وما بعدها من هذه الدراسة .

(٤) انظر مجلة « التنكيت والتبكيت » ، العدد الاول ٦ يونيو ١٨٨١ .
وانظر « ابراهيم رمزى » ، جريدة الفيوم ١٧ يناير ١٨٩٥ .
وانظر « مصطفى نافع » ، جريدة النافع ٢٧ مارس ١٩٠٤ .

(٥) انظر ، دراسة د. محمد أنيس « مصر من الاقطاع الى الرأسمالية » الكاتب ، يوليو ١٩٦٥ .
وانظر ، د. عاصم دسوقى ، كبار الملاك ودورهم فى المجتمع المصرى • القاهرة ، ١٩٧٥ .
وانظر ، د. صبحى وحيده ، فى أصول المسألة المصرية ، الانجلو المصرية ، ١٩٥٠ .
وانظر ، د. عبد العظيم رمضان ، صراع الطبقات فى مصر ، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٨) .

وانما اكتفى بتقديم صورة دقيقة لتلك الشريحة الاجتماعية نكتشف ــ من خلال فضاء وآفاق الصورة ــ لب الأزمة الاجتماعية للبورجوازية المصرية • وفى تحليل تاريخى دقيق يفسر السلوك الاجتماعى المنفصم لشرائح تلك الطبقة من كبار الملاك • يقول د • رؤوف عباس : « أما عن المصريين من كبار الملاك الزراعيين ، فقد قلد معظمهم الأتراك فى اسلوب حياتهم وأقاموا القصور المشيدة على أحدث الطرز ، والمصايف المتسعة الأرجاء ، واقتنوا الجوارى والعبيد ، وعاشوا حياة اللهو والترف مما جعلهم موضع افتقاد الكثير من احترام الكتاب ــ منذ الثمانينيات ــ فقد نعوا عليهم انفاق أموالهم فيما لا يعود على مواطنيهم بالفائدة ، وحثوهم على اقامة مؤسسات تعليمية والعمل على خلق صناعة مصرية تدرأ عن البلاد زحف المصالح الاقتصادية والأوربية ، كذلك كان من أعيان المصريين من يتقرب الى الذوات الأتراك ويسعى لاقامة علاقات اجتماعية مع بعضهم، فكان يحرص على زيارة أمراء الأسرة الحاكمة والوزراء وكبار الذوات الأتراك فى الأعياد ، حتى ولو لم تكن بينه وبين هؤلاء أى صلة سابقة ••

وبمرور الزمن تزايد أعيان المصريين وتناقص الذوات والأتراك نتيجة للظروف السياسية والاقتصادية الاجتماعية التى مرت بالبلاد • وازداد شعور أعيان المصريين بمصريتهم نتيجة للدور الذى لعبوه فى السياسة ، ومن ثم ، شاع التندر بالأتراك والسخرية منهم •

أما الأجانب ومن ارتبط بهم من الفئات الاجتماعية الأخرى ، فقد ظلوا يشكلون شراذم تعيش كل منها حياتها الاجتماعية فى محيط الجالية أو الطائفة التى تنتمى اليها ، واحتفظوا بعلاقات وثيقة مع العنصرين الآخرين من كبار الملاك ولكنها كانت علاقات اقتصادية ــ أساسا ــ بحكم كونهم يمثلون مصادر التمويل للنشاط الاقتصادى ، وكانوا حريصين على توثيق صلتهم بالدولة أكثر من اهتمامهم بتوثيق صلتهم بالمجتمع •

وقد أدى الاحساس بوحدة المصالح الاقتصادية الى تخفيف حدة

التناقضات التى كانت قائمة بين الفئات الاجتماعية المختلفة التى كونت فى مجموعها « طبقة كبار الملاك الزراعيين » تلك الطبقة التى كانت أبوابها مفتوحة ــ دائما ــ أمام كل من يستطيع أن ينمى ملكيته الزراعية بصورة تكسبه وضعا اقتصاديا واجتماعيا ممتازا يجعل له وزنا فى الحياة السياسية ويخرج من زمرة تلك الطبقة كل من تتضاءل ملكيته بشكل يؤثر على حالته المالية ووضعه الاجتماعى فهى « بورجوازية زراعية » فى بلد كانت تقوم حياته الاقتصادية على الزراعة ؛ وفى وقت لم تنشأ فيه مجالات جديدة لاستثمار الأموال ، ويقاس فيه الثراء بما يملكه الفرد من الأطيان الزراعية . » [1]

* * *

فى ضوء المهاد التاريخى للطبقة البورجوازية البازغة ، نحاول أن نتعرف على امتدادات الأزمة البورجوازية فى « حديث عيسى بن هشام » .

والمتأمل فى انعكاسات أو آثار هذا الوضع الاقتصادى فى الشكل الأدبى ، يلمس تماثلا بين الشكل الأدبى والهيكل الاقتصادى . خذ مثلا « علم الدين » [2] لـ « على مبارك » (١٨٢٣ ــ ١٨٩٣) والى

---

(١) د. رؤوف عباس حامد ، النظام الاجتماعى لمصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة ، (القاهرة ، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر ، ١٩٧٣) ص ١١٠ **وما بعدها** .

(٢) تمثل « علم الدين » (١٨٨٣) التيار التعليمى فى الرواية المصرية . وبطل الرواية « علم الدين » شيخ أزهرى تعرف على سائح انجليزى . ويستقر رأى علم الدين فى السفر مع العالم الانجليزى . ويلومه تلاميذه على سفره مع عالم أجنبى غير مسلم ، فيحدثهم عن مزايا السفر ، ويحتج عليه تلاميذه بقوله تعالى : « لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة » فيرد حجتهم ويناقشهم بقوله تعالى : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » وتشجعه زوجته على السفر فيسافر مع ابنه برهان **الدين والسائح الانجليزى** .

ويتخذ « على مبارك » من « الرحلة » قالبا فنيا يبث من خلال معلوماته ، على نحو ما فعل الطهطاوى من قبل فى : تخليص الابريز فى تلخيص باريز =

أى مدى تعد شخصية أمبيية ، ذات بعد واحـد ، وهى ــ فى التحليل الأخير ــ تنسجم مع اقتصاد مقفل الى حد ما .

وهذه الرؤية لا تعنى أن الأدب يعكس الوضع الاقتصادى عكسا آليا بل هى تجتهد ــ فى دراستها للعمل الفنى ــ أن تصـور طبيعـة العلاقة ، ومدى هذه العلاقة ، بين الهيكل الاقتصادى وبناء الشخصيات، مع الوعى بالملابسات الخاصة بكل . بمعنى أن هذه الرؤية تسعى أن تصور الفرد فى علاقاته ، والمجتمع فى تناقضاته .

وبالتأمل فى المنحنى التاريخى لاقتصاد المصرى نلمس أيضا تغييرا فى الهيكل الاقتصادى نجد آثاره فى سعى الشخصيات فى « حديث عيسى ابن هشام » نحـو « **التكيف الاجتماعى** » ومعاناتها المأسـاوية لعمق فكـرة « **التغيير** » على نحـو مـا تتمثل فى « **الاختيار الاجتماعى** » . فالقارىء للكتاب ، يلمس مدى تمزق الشخصية الروائية ، وحيرتها بين ماض بدت رواسبه وتراكماته فى سلوكها وبين مـا يمور به الحاضر . فهى بين « **الاختيار الاجتماعى** » ترنو أن تؤكد هويتها ، استشرافا لـ « **البقاء الاجتماعى** » على نحو ما نرى فى شخصية « العمدة » وصورته الكاريكاتورية التى رسمها « المويلحى » ، ومـدى معاناة الشخصية فى عمليـة « **التكيف الاجتماعى** » .

= (١٨٣٤) ، و « المويلحى » من بعدهما فى « حديث عيسى بن هشـام » (١٩٠٥) . وما أن يبدأ السفر حتى يستعرض « على مبارك » ثقافته ويعرض معلوماته ، ولا تظهر آثار ثقافته الشرقية الا حين يحاول فى بعض الاحيان مقارنة بعض العادات الغربية ، بالعادات الشرقية . وقد تطرق « على مبارك » الى اغلب العلوم المعروفة فى عصره من طبيعة وحيوان ونبات وجغرافيا وتاريخ ، وامتد حديثه الى موضوع الاختلاط بين المرأة والرجل . كما انه التفت الى بعض المظاهر الفنية مثل المسرح الذى سماه « التياتر » والغناء الذى قارن حاله فى الغرب بحاله فى الشرق .

والشخصيات لا تحظى بأى عناية من الكاتب ، الا باعتبارها وسيلة لتقديم معلوماته .

انظر : د. عبد المحسن بدر : تطور الرواية العربية (ط. الثانية . القاهرة ، دار المعارف) ١٩٦٨ ، ص ٦٤ ــ ٦٦ .

وصورة « العمدة » فى « حديث عيسى بن هشام » أقرب ماتكون ــ على المستوى الرمزى ــ الى صورة الحاكم فى تلك الفترة من الزمن ، وهو حاكم أنانى ، مبذر ، مقلد فى التافه من الأمور مما جعله ينقاد الى كل ما هو أجنبى واضعا أعنة الأمور فى يديه ، وأن يكون له القول الفصل فى تسيير دفة أمور البلاد وفى العمل الفنى « حديث عيسى بن هشام » بدت طوابع هذا الوضع فى سيطرة « الخليع » على « العمدة » واذا كان « العمدة » يمثل فناء « القرية » فى « المدينة » فان الحاكم ــ من ثم ــ يمثل فناء مصر فى أوروبا استنادا للمقولة التى كان يروجها ، « مصر قطعة من أوربا » .

* * *

ويتخذ « المويلحى » من الرحلة قالبا فنيا ينفذ من خلاله لنقد مظاهر الحياة الاجتماعية وما طرأ عليها من تغير أو تغيير .

فى الرحلة الأولى .. الرحلة الى الداخل .. داخل عوالم المجتمع المصرى بكافة شرائحه وطبقاته ، بينما تتجه الرحلة الثانية الى الخارج حيث يقارن فيها بين الشرق والغرب .

يطوف بنا « المويلحى » ــ فى الرحلة الأولى ــ فى جوانب الحياة المصرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين . وهو فى تصويره الفنى فى « حديث عيسى بن هشام » يحدد موقفه الطبقى ــ موقف البورجوازية المصرية الكبيرة ــ لــذا فهو يعى تماما جوانب الضعف أو القصور فى طبقته . وهذا يفسر نوعية النقد الذى يوجهــه اليها . فهو لا يهادنها ، وان كان حريصــا على تعريتها واضــعا أنامله على نقاط الضعف مهيبا بها أن تغير من سلوكها ومواقفها كى تبرأ مما لحق بها وتصحح مسارها .

أما الطبقة الأرستقراطية ، وهى الطبقة القشرية فى المجتمع ، فهو

يهاجم معاقلها تمهيدا لازاحتها • وطبيعى أنه يهدف بهـذه الازاحـة أن تقوم الفئات أو الشرائح الاجتماعية للطبقة البورجوازية البازغـة بدورها فى قيادة الحركة الوطنية ، وفى ادارة المؤسسات الاقتصـادية والفكرية والاجتماعية والتشريعية والقانونية •

و « المويلحى » يعلم أنه ــ فى ظل الوجود الاستعمارى ــ ما كل ما تتمنى الطبقة البورجوازية تدركه • لكنه ــ فى الوقت نفسه ــ ممن يرون أن تبدأ حركة **« التغيير الاجتماعى »** مـن **« الداخل »** بناء البشر عقليا ووجدانيا وجماليا بحيث يتحقق للانسان المصرى الاشباع المادى والروحى فى مجتمعه • وهو يرنو بذلك الى فكرة سامية طالما راودت عقل الرواد العظام وأفئدتهم (الطهطاوى ــ الافغانى ــ محمد عبده) ــ فكرة **« العدل الأسمى »** حيث ترفرف السعادة والرفاهية على أجـواء المجتمع المصرى • وهى نظرة ــ فى التحليل الأخير ــ اصلاحية وليست ثوريـة •

وقد تميزت نظرته النقدية للمشكلات الاجتماعية التى نجمت عن « التغير الاجتماعى » بالنظرة التاريخية • والمقصود بالنظرة التاريخيةإلى الماضى أو التراث عامة ، « تلك التى تضعه فى سياقه الفعلى ، وتتأمله من منظور نسبى ، بوصفه مرحلة انتهى عهدها ، وتلاشت فى مراحل لاحقة تجاوزتها بالتدريج حتى أوصلتنا الى الحاضر • وفى مثل (هذه) النظرة التاريخية لا يكون الماضى قوة منافسة للحاضر ، ولاتثار على الاطلاق مشكلة التوفيق بين الماضى والحاضر ، لأن الحاضر بطبيعته يحمل فى داخله بذور الماضى ، ولأن الماضى خلق الحاضر عن طريق تجاوزه المتدرج لذاته » [1] •

---

(١) د. فؤاد زكريا ، التخلف الفكرى وأبعاده الحضارية ، بحث قدم فى ندوة « أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى » ابريل ١٩٧٤ ، (الطبعة الاولى ، الكويت ١٩٧٥) ص ١٦٨ .

فالتجربة التاريخية عند المويلحى ، تتسم بالتواصل • بمعنى أن التجربة البشرية الحاضرة تندمج فى الماضى • أو الماضى ساهم فى صياغة الحاضر • يقول : « وهناك أمر آخـــر يمتاز به علم التاريخ عن بقية العلوم وهو أنه متى وصل المؤرخ الى تصوير حالة أمة من الأمم الغابرة فى أمورها العامة والخاصة عن طريق استقراء الوقائع وتأليف الحوادث وترتيب أوضاعها فانه لا يكتفى بالوقوف عند هذا الحـــد بل لابد أن يتعداه الى الحكم بنفسه على أعمال تلك الأمم الماضية والى استخراج الموعظة الحسنة والنصيحة العامة لينتفع بها قومه ويسلكوا بها سبل الرشاد ••• هذا والطبيعة البشرية واحدة فى كل زمان فلا تكاد تختلف الحوادث الصادرة عنها فى الماضى عن الحاضر الا باختلاف الظروف • وهذا معنى قولهم « ليس تحت الشمس من جديد » والأفراد والأمم فى ذلك على سبيل واحد فاذا طرأ على الانسان حادث وكان ذا اطلاع على التاريخ عرضها على سجل حوادثه وخزانة تجاربه فلا بد أن يعرض له فيها ما يماثلها ، أو ما هو قريب منها أو ماهو متفق معها فى النوع وان كان مختلفا فى الشكل فيتفرغ حينئذ لحكم القياس فلا يلبث أن يخرج منه ما تستقيم معه القضية وتلوح له النتيجة التى يستطلعها فى المستقبل بضوء النتيجة التى سبقت فى الماضى » (١) •

والنص السابق يكشف عن رؤية « المويلحى » للتاريخ مما يساعد على تحديد موقفه من جذور المشكلات التى يطرحها الواقع الاجتماعى المتغير ، فى ضوء المنحنى التاريخى لها • فالنظرة التاريخيـــة للمويلحى أضفت على رؤيته الاجتماعية طابعا شموليا عاما كما أن حسه الاجتماعى ــ وهـــو حس نلمس فيه بذور الفنان الروائى باعتباره شـــاهدا على عصره ــ دفعه نحو التحديق فى جزئيات ما يحدث من تغيير فى المجتمع وما يحمل من دلالات • وعلى هذا ، فنظرته التاريخية جمعت بين التحليق

---

(١) المويلحى ، كلمة فى التاريخ ، مصباح الشرق ، ١٢ يوليو ١٩٠٢ ، ص ١ عمود ٢ •

فى آفاق الماضى والتحديق فى الحاضر . فهذه النظرة ، تتسم بالتواصل ، وتؤكد ارتباطها بالتراث ، وبالجوانب المشرقة منه خاصة ، بحيث يشعر الانسان المصرى بتواصل وجدانى مع الماضى . به يفسر الحاضر ، ويحدد من خلاله رؤيته ورؤاه للمستقبل . انه — بشجاعة — لا يريد أن يلقى التبعة بكاملها — تبعة التخلف الثقافى والاجتماعى — على الاستعمار بل يحدد مسئوليته ومسئولية المثقفين المصريين ، خاصة بعد انحسار المد الثورى بفشل الثورة العرابية . لذا فقد أراد أن يغير من أسلوب النضال الوطنى ، مع الابقاء على « استراتيجية » الثورة الوطنية . فانتقل بمعركة التغيير الاجتماعى الى الساحة الثقافية حيث جاهد بقلمه فى ارساء دعائم البنيان الداخلى لمواجهة « التغير » الذى يتعرض له المجتمع ، وتنمية قدرات الانسان المصرى على « الامتياز الاجتماعى » .

ومن اليسير على الباحث أن يربط جذور الفكر الاجتماعى عند « المويلحى » بأفكار استاذة الامام « محمد عبده » الاصلاحية المتدرجة [1] .

* * *

ويتألق تأثير الاستاذ الامام محمد عبده وتعاليمه فى تصوير « المويلحى » للوحاته الروائية ، من خلال تأكيده لقيمة العمل .

يقول — على لسان عيسى بن هشام — للباشا وهو يحاوره : « ... وكان الأولى بكم أن تكونوا كالناس فى معايشهم ، لكل انسان آله بينة من صناعة أو حرفة يحسن بها التعيش والارتزاق » [2] هنا يؤكد « المويلحى » على قيمة من قيم البورجوازية « العمل » وان كان يستند الى موروث من الحضارة الاسلامية على نحو ما وجدنا عند الطهطاوى و « محمد عبده » [3] .

---

(١) انظر ص ٤٥ من هذا البحث .
(٢) حديث عيسى بن هشام ، ص ٥٥ .
(٣) انظر ص ٤٥ وما بعدها من هذا البحث .

وفى حوار ممتع يشف عن قيمة من قيم البورجوازية التجارية المصرية ، حيث يصور « المويلحى » موقفها من « التجارة » • وفى مشاهد حوارية (فصل الأعيان والتجار) يجسد القضية من منظور وطنى بمعنى أنه **ينبه** القوى أو العناصر الوطنية أولا الى ضرورة الوقوف ضد العناصر الأجنبية التى بدأت تتغلغل وتسيطر على الهيكل الاقتصادى للدولة بما فيها قطاع التجارة الداخلية والخارجية والعقارات والتصدير والاستيراد ، وبورصة القطن • باختصار سوق المال والاقتصاد (١) •

ثم انه ــ ثانيا ــ يدق ناقوس الخطر نتيجة اعراض المصريين عن التجارة ، ويدعوهم الى ممارسة العمل التجارى على أساس من ترشيد علمى •

وتصور اللوحة الحوارية التالية جانبا من تلك الأفكار :

« أحدهم ــ نعم لابد من ذلك اذا يسر الله وتم الاتفاق مع الخواجة فلان ، فان اقامة عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتى بأرباح لايمكن أن تأتى بها الأشغال التجارية ، وأنا أنصحك يا أبا هاشم أن تترك التجارة جانبا ، فقد أصبحت الآن لانفع يرجى منها ، وتوكل على الله فى الاشتغال معنا بالأبنية فهى أنجح وأرجح وأربح • الثانى ــ ومن أين لى ــ زادك الله من النعمة والبركة ــ ما يساعدنى على هذا التوسع ، والحال على ما تعلم ضعيفة ، والحمد لله على نعمة الستر فهى الغنى الكامل ؟

الأول ــ لا تقل هذا أيها السيد ، « وأما بنعمة ربك فحدث » ، ودعواك ضعف الحال ان هى الا تواضع منك ، والله يزيدك فضلا على فضل •

---

(١) انظر ص ٤٨ من هذا البحث .

الثانى ــ استغفر الله العظيم يا سعادة البك ، هــذا حسن ظن منك ، والا فالحقيقة غير ما ظننت ، وقد قلت لك : ان الســتر هو الغنى الكامل ، وعلى كل حال فالبركة فى التجــارة ، فمنهــا كان رزق الآباء والأجداد ، وربح مستور ، أبرك من ربح مشهور .

ثالث ــ تا الله انكم لفى ضلالكم القديم ، وهل بقى فى التجارة ، التى زاحمكم عليها الأجانب ، ربح يذكر ، أو رزق يطلب ؟ فاتركوا هذا الخمول ، وعليكم بأشغال القطن فى البورصة ، فهى الربح المضاعف ، والرزق الحاضر ، يأتيك رغدا بلا كد ولا تعب ، وكم رأينا من فقير ولج البورصة ، فخرج بفضل المضاربات غنيا كبيرا ، وهذا صاحبنا الخواجة فلان اليهودى ، وفيكم من أدرك والدته تبيع الخبز بالحــارة ، قــد مارس تلك الأشغال ، فأصبح أكثر الناس مالا وأرفعهم حالا ، ونحن لانزال على ماتركه لنا الآباء والأعمام رحمة الله عليهم .

رابع ــ ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذى تعنيه لم يصــل الى ذلك الا بأشغال السمسرة ، وفيها من الحطة مالا يخفى عليكم ، وهل تريدون أن ينزل أحد منا بنفسه الى هــذه الأشغال بعــد أن عشنا مثل هــذا العمــر ؟

الثالث ــ حاشا الله أيها السيد ، ليس هذا من قصدى ، وانمــا أردت أن أبين لكم أن هذا اليهودى دخل البورصة سمسارا لا يمتلك مالا ، فأصبح من كبار الأغنياء ، فما بالك بمن يدخلها وهــو صاحب ثروة ؟ لاشك أنه يخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه .

خامس ــ ما وراء الربح الكثير الا الخسران الكبير ، وقد شاهدنا بأعيننا ما أنتجته أشغال البورصــة من تخريب البيوت العامرة ، وتبديد الغنى الواســع ، وانحطاط العماد الرفيع ، وأرى أن الاقدام على هذه المهالك من الجنون المحض « فالله خير حافظا » .

سادس ــ أما أنا ــ ولايلدغ المؤمن من جحر مرتين ــ فقد كفانى

تأديبـــا ما تكبدته من الخســـائر فى تلك المضـــاربات على الأقطـــان ، ولولا فضل الله وبركة دعاء الوالدين لما نجوت من الخراب •

الثالث ــ لا حول لا قوة الا بالله « انك لاتهدى من أحببت » ، كيف تخشون الخســـارة فى أشغال الأقطان ، وتتوقعونها والربح فيهـــا مضمون ، مع بعض الانتبـــاه لمجـــرى الأخبـــار ، وحسن التخمين فى الاحصـــاء ، وتقدير المحصول والمطلوب للتسليم ، ومع القليـــل من الممارسة والجراءة فى العمل •

الثانى ــ ••• وخير ما يدخر الوالد لأبنائه وأفضـــل ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم فى المدارس ، وألا يعـــودهم فى حيـــاته الانفاق والتبذير ، بل يروضهم على التوفير والتدبير ، ومعرفة قـــدر الدرهم والدينار •

الأول ــ وهل جاءتنا المصـــائب فى أولادنا الا من هـــذه المدارس وتعليمها ؟ وهل زادهم ذلك التهذيب الا ما شئت من الفظاظة والوقاحة والكبرياء والمكابرة ؟ •••

الثانى ــ ولكن فاتك أن تعليم أبنائنـــا فى المدارس يفيدنا فائدة عظيمة يغتفر لها كل ذنب ، وهى دخولهم فى سلك الموظفين فى الحكومة ، وارتقاؤهم المراتب والمناصب ، ويا ليت آباءنا كانوا التفتوا فى أيامهم الى تعلمنـــا فى المدارس ، فكنا استغنينا عن ممارسة التجارة ، وذل البيع والشراء ، وكساد الســـوق ••• فما العيش الا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم فى آخر كل شهر نقدا عينا ، وذهبا خالصا ، دفعة واحدة سالمة لأيديهم بلا مطـــل ولا تسويف ، فى مقـــابل جلوسهم بالديوان ثلاث ســـاعات من كل يوم ، يقضون الجزء الأعظم منها فى المســـامرات والمفاكهات ، ثم ناهيـــك ، بما لهم بين النـــاس من التوقير والتعظيم ، وما فى قدرتهم من مساعدة الأصـــحاب ونكاية الأعداء ، ورأس المـــال فى ذلك كله الاحاطة ببضعة كتب فى المدرسة • فأخبرنى حينئذ أى ربح

فى التجارة ، وأى شأن لها يوازى هذا الربح ، وهذا الشـــأن فى خدمة الحكومة ؟ وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة .

الرابع كل هذا معلوم ومسلم به ، ولكن من أين لك أن ينال ابنك الشهادة ، وأنت تعلم حال القابضين على زمام التعليم ؟ فقد خرج أكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة ، وخسرنا عليهم الأموال فى نفقاتها ...

الخامس ــ حقا : اذا ذهب هؤلاء النظـــار ، وعاد صاحبـــك الى النظارة فقد أقبل علينا السعد ، وانجلت الكروب ، وصفت الأوقات ، وأنا **أرجو ألا تنسى ابنى عند السعى لأنجالك** ، فقد كان معهم فى مدرســـة واحدة ، وهو دائما يطالع الجرائد ، ويترقب الحوادث التى يكون من ورائها سقوط هذه النظارة .

الثامن ــ ألا أراكم تخبطون فى أمـــر أولادكم على غـــير هدى ، والأصوب عندى أن **نعلمهم العلوم ليكونوا أســـوة أهل زمانهم معرفة واطلاعا ، لا لأجل التوظف فى الحكومة والخروج عن طبقاتهم ، وأما من جهة حفظ المواريث فى أيديهم بعد ممانتا ، فأحسن الطرق ألا نقتر عليهم فى النفقه أثناء حياتنا ، وألا نتركهم بمعزل عن أشغالنا ، بل نخصص لهم قسما من المال يشـــتغلون به على حدتهم تحت أعيننا ، ليتمرنوا على العمـــل ، ويدركوا لذة المكسب بأنفسهم ، فتتربى لهم ملكة الحـــرص على المنـــافع ، وينتفعـــوا بعلومهم فى اتســـاع تجارتهم ، والتفنن فى أبواب المرابحة »**[1] .

والمشـــهد الحـــوارى الســـابق يشف عن موقف « المويلحى » ــ وهو امتداد لموقف الطهطاوى ومحمد عبده من قبل ــ موقف البورجوازية الصاعدة ــ من العمل الحـــر والعمل الحكومى . ويكشف الحـــوار عن سممة تميز هذا المجتمع البورجوازى « المســـلم » ــ الحث على التجارة

---

(١) حديث عيسى بن هشام ، ص ١٤٣ وما بعدها ، وتمييز الكلمات من عندى .

نفيها تسعة عشراء الربح ــ وهو دائما ما يدعم رؤيته بالاتكاء على التراث ، وبالجوانب المشرقة الايجابية التى تحث على العمل وترنو اليه بوصفه قيمة تجسد معنى « الشرف » وليس الاعتماد على مجرد ميراث الثروة دون استثمارها • وهى نظرة سبق أن طالعتنا فى فكر الطهطاوى (١) •

ويكشف المشهد السابق أيضا عن قيمة يحرص « المويلحى » على أن يغرسها فى نفوس الطبقة البورجوازية الصاعدة •• قيم « البورجوازى الحصيف » الذى ينتبه لكل ما جرى حوله من أمور • ويهتبل الفرص لاستثمار ثروته •

على أنه يصور وجهة النظر المقابلة ••• وجهة نظر أنصار العمل فى الحكومة • وفى صور جدلية ، قائمة على فن المناظرة يدلى « المويلحى » برأى تلك الفئة ، وهو هنا يصورها من الداخل • فقد خالط فئة الموظفين خلال عمله بالادارة • كما أنه ــ من جانب آخر ــ كابد آثار الخسارة فى المشروعات التجارية • وكما نعلم فقد بدد والده ــ « ابراهيم المويلحى » ثروته • لذا جاء تشريحه لكلا الموقفين ينبع من تجربة واقعية •

كما يصور المشهد ذاته وجهة نظر فئة من فئات البورجوازية التى نعتصم بالعمل الحكومى تكريسا للمثل الشعبى : « ان فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » • وهو لا ينسى خلال تصويره أن يندد بنظام التعليم السائد آنذاك والذى وضعه « دنلوب » بوصفه ثمرة من ثمار تغلغل النفوذ الأجنبى فى المؤسسات التعليمية والاقتصادية والقانونية مما حدا بفئات من المصريين أن تهرب ــ عجزا منها عن مواجهته ، وترتمى فى أحضان العمل الحكومى • ويشير فى حواريات السابقة الى بداية تفشى « الوساطة أو المحسوبية » •

---

(١) انظر مناهج الالباب ــ الباب الاول ، الفصل الثالث ، ص ٣٢٩ .

فالمويلحى يصور القيم التى تستند اليها « البورجوازية المصرية الصاعدة » فى تقدمها ، مؤكدا ضرورة دعم البنية الأساسية : الاقتصاد القومى : المال ، والاقتصاد ، والتجارة والصناعة ذلك « أن الغربيين لم يمتازوا عن أهل المشرق اليوم الا بالصناعة وآلاتها الميكانيكية » (١) • وهو هنا ينحدر من معطف « الطهطاوى » العظيم •

* * *

٤ ــ المويلحى و « نقد القيم » :

ان قراءة ما وراء النص من دلالات تنبىء عن الموقف النقدى « للمويلحى » بفعل ما طرأ على المجتمع من تغير أو تغيير استتبع تغيرا فى القيم التى تواضع عليها المجتمع • والقارىء للكتاب يلمس موقف « المويلحى » من قيم : العلم والعمل ، والقضاء والمؤسسات التعليمية والثقافية (الأزهر) والفن والمعرفة الحسية •

ومن الأهمية أن نضع هذا الفكر فى اطار صورة الفكر المصرى الحديث لدى مفكرى عصر التنوير ، لكى نتعرف على منابع فكر « المويلحى » وامتداداتها فى « حديث عيسى بن هشام » •

« من المسلم به أن الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٩ ــ ١٨٠١) قد أعادت ما انقطع من صلة بين « الشرق والغرب » • وتراءى الوجه الحضارى للحملة الفرنسية فى اتصال بعض علماء الأزهر بعلماء الحملة الفرنسية • وتراوحت ردود أفعالهم تجاه منجزات الحضارة الأوروبية • فـ « الجبرتى » (١٧٥٤ ــ ١٨٢٢) (٢) علق على بعض

---

(١) مصباح الشرق ، « الشرق والغرب » ٧ يوليو ١٨٩٨ ، ص ١ عمود ٥ .

(٢) مؤرخ مصر ومدون وقائعها وسير رجالها ، فى عصره ، صاحب « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » أربعة أجزاء ، ابتداء بحوادث =